سعد رحمى

ليس قلبى هو الذى يوجعنى، وإنما يوجعنى غياب الحلم الذى ظللت أعيش من أجله
سعد رحمى «فى حوار معه قبل رحيله بقليل متحدثا وهو مريض جداً عن انهيار الاتحاد السوفيتى»

الأسرة إقطاعية، الأب اميرالاى بالجيش أحيل إلى المعاش، فقد كل ثروته ولم يبق له سوى الكبرياء الاقطاعى، كان صديقا لهيلاسى لاسى وعندما غزا الإيطاليون إثيوبيا، قرر تشكيل تنظيم عسكرى للسفر إلى هناك لمحاربة الإيطاليين. تركته أعين الاحتلال البريطانى حتى أنفق كل ما يملك على التدريب والتسليح والسفر إلى السودان مع مجموعته، ثم صادروا سلاحهم وأعادوهم إلى مصر، كان الأب وفديا وأنجب «توأم» ولد (سعد) وبنت (صفية). وسعد كان يتحدى المناخ الارستقراطى ويعيش حياة بوهيمية فى الملبس والتصرفات. وفى السنة التوجيهية التقى بزملاء فى المدرسة السعيدية هم حمدى عبّد الجواد - فؤاد عبد الحليم- أحمد شوقى الخطيب، قرأوا معا المعذبون فى الأرض لطه حسين واقتربوا من التعاطف مع الفقراء ثم أحضر لهم حمدى ديوانا عثر عليه بالمصادفة. ديوان إصرار للشاعر كمال عبد الحليم، سألوا عنه، هو شيوعى فأصبحوا شيوعيين مثله، انضم مع حمدى إلى تنظيم القلعة (مصطفى هيكل) صعد سريعاً فقد أصبح قائدا ثوريا فى كلية الطب. كان صيف ١٩٤٦ ملتهباً، القلعة اتحدت مع ايسكرا ثم انضم الجميع فى إطار الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى(حدتو) انهمك سعد فى العمل الثورى.. وزع مجلة الجماهير فى كلية الطب وفى الشوارع المحيطه بفيلا الأسرة فى حى الروضة واشترك فى لجان مكافحة الكوليرا. وجاء الصيف وسافرت الأسرة جميعا إلى المصيف إلا هو فالدراسة تتواصل فى كلية الطب. تحدى المألوف. جمع الأثاث الأرستقراطى فى غرفة داخل الفيلا لتكون مقرا لرابطة الطلبة المصريين، ولجان مكافحة الكوليرا. وكان الهول

عندما عاد الأب ليجد الفيلا فى أيدى شبان يتحدثون عن الثورة، وفى الإجازة أصبح سعد عضوا فى لجنة فرع مصر القديمة بحدتو. وكان مسئوله آمال المرصفى (أصبح فيما بعد واحداً من الضباط الأحرار). ومع العام الدراسى عاد لموقعه التنظيمى فى كلية طب قصر العينى وكانت خليته مكونة من يوسف أدريس - صلاح حافظ- محمد يسرى أحمد. وهو مع موجة الانقسامات هو إنساق إلى آخر مدى جمع عدداً من الطلاب وأسس تنظيماً سماه «نحو منظمة بلشفية» (ن.م.ب) ويقول: كنا ثوريين لكننا أصبحنا مجانين واتسم فعلنا بالصبيانية. كنت أصدر نشره مطبوعة طباعة رديئة، اكتبها كلها بنفسى واطبعها بنفسى وأوزعها بنفسى وكانت مليئة بشعارات مجنونة وجمل صبيانية كلما تذكرتها أخجل من نفسى» (من حوار معه أجرى ٥-٩-١٩٨٣) بعدها انضم إلى منظمة أكثر جنونا (م ش.م) ترك كلية الطب واحترف وسافر إلى الاسكندرية لتفرض عليه أعمال وشعارات صبيانية. وبعدها أفاق من الجنون، ترك الجنون وعاد معتذراً إلى حدتو. ترك الكلية والأسرة والفيلا وأصبح محترفا وأرسل إلى الصعيد فأصبح فارسا ونجح فى بناء منظمة قوية فى عديد من الأماكن- أهمها الفيوم والمنيا وأسيوط ويقول «كنت لا أنام ولا أتعب فثمة شعور يؤنبنى أننى ارتكبت اخطاء ولابد أن أكفر عنها» وكثمرة لهذا النضال أصبح عضوا فى اللجنة المركزية. وإذ يتفجر الكفاح المسلح عام ١٩٥١ شكلت حدتو كتائب الانصار للكفاح المسلح وكان هو وسيف صادق وعبد المنعم الغزالى قيادتها. ويؤسس هناك ركائز حزبية قوية، ويأتى حريق القاهرة يناير ١٩٥٢ وتعلن الأحكام العرفية ويختفى ويقبض عليه فى مارس ١٩٥٢ ويسجن حتى مارس ١٩٥٦. وفى سجن القناطر التقينا ونسجنا معا ذكريات جميلة. ويخرج ليواصل النضال ويأتى العدوان الثلاثى. وتستدعيه معشوقته القديمة بورسعيد التى حارب فيها الاحتلال عام ١٩٥١. وسافر هو ومجموعة من رجال حدتو وهناك خاضوا معارك نضالية ومسلحة وجماهيرية، وفيما كان محافظ بورسعيد يستعد لتسليم المدينة رافعاً العلم الأبيض حشدوا جماهير غفيرة منعته من ذلك. ويتواصل النضال حتى يندحر العدوان. ويعود ليواصل معركته مع حزبه مسئولا عن منطقة الإسكندرية. ويخوض سعد بكل قوته معركته من أجل توحيد الشيوعيين، بذل جهدا فوق الطاقة وعندما توحد الحزب فى ٨ يناير ١٩٥٨ أصبح عضوا فى لجنته المركزية. وحاول أن يكون عنصرا فاعلا فى بناء وحدة حقيقية، رفض الانحياز لأى طرف وتمسك بمحاولة التقريب بين طرفين

لا يرغب أى منهما فى التقارب. وغضب منه الطرفان لكنه صمم إلى موقفه المبدئى. وعندما وقع الانقسام لم ينقسم مع رفاقه القدامى، فغضبوا منه، ولكن من بقى معهم تشككوا فيه ورفضوا مواقفه المبدئية..

ويحكى فى حواره معه «كنت اشقى بابتعادى عن رفاقى القدامى. وكنت أشعر بغربة مع من بقيت معهم، كانوا يتحاشوننى ويخفون عنى أسرارهم ويعتبروننى لغما قابلا للانفجار». وتنتهى فترة سجن مريرة امتدت من يناير ١٩٥٩ وحتى ابريل ١٩٦٤ كان فيها رمزا للرجولة والمواقف المبدئية والصلابة فى مواجهة التعذيب الوحشى فى سجون الناصرية.

ويحاورنى قائلا «انتهت فترة التعذيب لتحل محلها فترة العذاب» الحزب تقرر حله. حاول أن يرفض الاقتراح لكن القرار كان بأغلبية كاسحة. وتحول المناضل الثورى إلى موظف صغير بالثانوية العامة، ويشقى كثيرا ليدبر شئون معيشته. ويسد النقص فى الدخل بالاشتغال بالترجمة لكنه وجد نفسه مرغما يترجم وفقط كتبا ماركسية.. فإزداد فقراً.

ومن جديد يعاد تأسيس الحزب الشيوعى فينضم إليه ويصبح عضوا فى مكتبه السياسى. ويقيم فى موسكو فترة وجيزة عمل فيها مراسلا لكن التعاسة الأبدية تلاحقه فكانت دعوة البريسترويكا.. وجد الطوفان يغمر حلمه الأبدى دولة العمال والفلاحين. وعاد من موسكو مريضا. قال الأطباء هو يرفض الحياة. جلست إلى فراشه حاولت أن أنتشله من وهدة الرغبة فى الموت. فقال بصوت واهن «كنت أعيش من أجل حلم. الحلم مات، ومهما عشت فإنه لن يعود. دعنى أموت. ومات.